ضياء الدين: سيرة حياة

نـاصـر الـريـاط*

عندما وصلتُ إلى مطار لوس أنجلس لأول مرة، دائخًا ومرهَقًا في آخر نهار صيفي ناعم ومتراخ، كانت قد مضت ثماني سنوات منذ أنْ قابلتُ ضيا، قريبَ أمي وحكيمَ العائلة غيرَ المتوَّج. وجدتُه واقفًا بانتظاري، كما كنتُ قد رجوتُه على الهاتف من كوبنهاغن، منتصبًا، وحيدًا، نحيفًا، مشدودَ الأعصاب ومعروقَها. وفي زاويتيْ رأسه الكبير والقليل الشعر تَلْمع عيناه اللمّاحتان والذكيتان اللتان، وإنْ كانتا تُبْديان عدمَ الاهتمام بما يجري حولَه، فهما تلتقطان الكثيرَ، وتختزنانه، لتستحضراه ثانيةً في موقفٍ آخر استقبلني ضيا بعفوية، كمن يستقبل صديقًا لم يمرَّ وقتٌ طويل على لقائه به، وإنْ كان في استقباله بعضُ رجاء أن أكونَ ما عَهِدَه فيّ وما أمله من وصولي إليه في مغترَبه، وربما أيضًا بعضُ تهرُّبٍ من الانجرار إلى علاقة عائلية تَفْرضها عليه التقاليدُ والانتماءُ وتوقّعاتُ الأهل في دمشق.

ولكنّي لم أكن راغبًا في إقامة نموذج عائلي مصغّر في منفاي المختار، أنا الذي كنتُ هاربًا من النموذج الأصلي وراغبًا في الانعتاق عنه. ولعلّ هذه الرغبة هي ما أراح ضيا وجعله يُرْخي دفاعاتِه التوحُّدية عندما عرف بنيّاتي بعيْد وصولي وهو يُقلّني بسيارته الشيروكي السپور إلى مسكني الجامعي الجديد. أظنّ أنّ رغبةَ كلّ منّا في التواصل مع من يَفْهمه ويشاركه بعضًا من ماضيه مع احترامه لخصوصيّته ونزعته الفردية هي ما جعلنا نتقارب بسرعة في لوس أنجلس، بغضّ النظر عن صلة القرابة التي تصلنا بالأساس، أو حتى بالرغم منها. وكانت تلك الرحلة بسيارته فاتحةَ علاقةٍ حميمةٍ قرّبتني من هذا الإنسان الذي قلّ مثيلُه في زماننا اللاإنساني: إنّه الإنسانُ المتفرّد، والمشبَعُ إنسانيةً عميقةً وإنْ كان انعكاسُها على السطح لامباليًا بمعاييرِ المجتمع ومواضعاته السخيفة، طافحًا بالنقد لكلّ متناقضاته، ولو أنّه لم يرغب قط في تجاوز النقد إلى التغيير.

❖ ❖ ❖

وُلد ضيا في دمشق مع بدايات القرن العشرين، عندما كانت المدينة ماتزال جزءًا من إمبراطورية عثمانية كبيرة ومهترئة لا يعرف بالتأكيد في أيّ سنةٍ وُلد: فقد تكون ١٩١٠ أو ١٩١٣.

ضيا، في الثالثة عشرة من عمره (تقريبًا) ١٩٢٣ (من مجموعة د ضُحى الشّطّي، ابنةِ ضيا)

وهو سليلُ عائلةٍ حنبلية محافظة، يقال إنّ أصلها من جنوب العراق، ولذلك كان اسمُها الشطّي نسبةً إلى شطّ العرب ولعلّ العائلة استوطنتْ دمشق هربًا من تعنّت شيخ قبيلة في موطنها الأصلي، أو من مشاكل أخرى. كان والده وعمُّه وأخواه الأكبران غيرُ الشقيقيْن علماءَ دينٍ مشهودًا لهم في البلد، وقد احتلّ اثنان منهما منصبَ مفتي الحنابلة في دمشق، وساعد أحدُهما جيشَ الثورة العربية عند دخوله سوريةَ تحت قيادة الأمير فيصل بن الحسين، الأمرُ الذي لا بدّ أنّه دَفَعَ بأَسْهم العائلة عاليًا في مجالات العلم والتعليم في دمشق العربية. أما والدته فقد انتمت إلى عائلة صغيرة من أصول تركية أَنجبتْ بعضَ رجال الجيش والإدارة، ثم انقرضتْ مع جيل الأم، ولم يبقَ منها سوى شواهدِ قبورٍ معفَّرةٍ وآيلةٍ إلى السقوط في مقبرة الدحداح، وبعضٍ من صورٍ باهتةٍ لرجالٍ ونساءٍ وأطفال لا يَذْكر أحدٌ اليومَ أسماءهم.

يبدو أنّ تفرُّدَ ضيا وتوحُّدَه قد بدأا بالظهور منذ نعومة أظفاره، رغم أنّ لذلك دوافعَ خارجيةً ومأساويةً على الأغلب. فضيا، على

* ـ كاتب سوري أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T)

ما يتذكّر، انفكّ عن تراثه الديني المتشدّد بعد وفاة أمه إثر أبيه، وهو بعدُ طفلٌ صغير. ذلك أنّه، عقبَ حيرةٍ حزينة وتفكُّرٍ عميق بعد مُصابيْه المتواليَيْن، ظلّ عاجزًا عن تفهُّم «الحكمة» الإلهية المفترضة في هذه المأساة الشخصية على ما علّمه أهلُه والقيِّمون عليه. وقضى أوقاتًا طويلةً وحيدًا في رحاب الجامع الأموي وهو يحاول التعويضَ عن الحرمان بالإيمان ولكنّه في ذلك العمر الغضّ لم يتمكّنْ من تجاوز ألمه لفقد أمه. ولم يَطُلِ الوقتُ قبل أن يستنتجَ عقمَ المحاولة ويقرِّرَ تركَ الدين جانبًا ليلتفتَ إلى اتجاهاتٍ فكريةٍ وفلسفيةٍ أخرى ثَبّتتْ قلقَه ومنحتْه بعضَ الراحة النفسية مع اشتداد عُوده. ومع ذلك، فمن الواضح أنّ مأساة فَقْدِ أمه الحبيبة قد خَلّفتْ جرحًا غائرًا في ضميره، وربما وَسَمتْ حياتَه بميْسَمِها: فقد كانت في باله دومًا، كما أنّ الكثير من قراراته الشخصية ـ التي تبدو متناقضةً وغامضةً للوهلة الأولى ـ تصبح أسهلَ فهمًا إذا ما وضعنا في الاعتبار الإحساسَ المزمنَ بافتقاد الحرارة الأمومية الذي لازمه طوال حياته رغم ضنّه بالتعبير عنه.

من ذكريات حياته المدرسية، تحتلّ السنتان اللتان قضاهما في مدرسة اللاييك الفرنسية في أواخر العشرينات من القرن الماضي (١٩٢٦–١٩٢٨) مكانةً محبَّبةً في وجدان ضيا. فقد فَتحتا عينيْه على تفسيرات أخرى، غيرِ الغيْبية الدينية، للأسئلة الوجودية العويصة التي شَغَلتْ فكرَه مذ وعى وجودَه نفسَه، وفتحتْهما أيضًا ـ وهو الشابُّ النهمُ إلى التعلّم والجذّابُ والمغترُّ بنفسه عن استحقاق ـ على إمكاناتٍ ومباهج الحياة المعاصرة التي كانت دمشقُ المحافظةُ والخَفِرَةُ مازالت متَردِّدةً في ولوجها وقد بدأ تكوّنُ شخصية ضيا المفكّر منذ تلك السنين فهو اكتسب عادةَ القراءة النهمة في اللاييك، وتعلّم الكلامَ بفرنسيةٍ أنيقة، وشرع في الاعتناء بهندامه وتزويقه على الطريقة الباريسية التي وصلتْه وزملاءَه أصداؤها في اللاييك، وقابَلَ المرأةَ الغربيةَ السافرةَ والمعادِلَةَ له فهمًا وعلمًا وحديثًا، والتي كان بطبعه مهيَّأً لتقبُّلها ومسايرتها، وبالنهاية للوقوع في غرامها، في اللاييك أيضًا، رغم أنّه كان غرامًا عابرًا تَرَكَه وهو عطشانُ إلى المزيد

❖ ❖ ❖

وإذا كانت السنتان اللتان قضاهما في لاييك دمشق شديدتي التأثير في تكوُّن شخصيته، فالسنتان اللتان قضاهما في المنبع الأصلي، باريس نفسِها، إثْرَ تخرُّجه عامَ ١٩٣٦ من كليّة طبّ دمشق التي أُجبر على دخولها بضغطٍ من أخيه الأكبر الطاغي، صَهَرتا هذا التكوُّنَ وأكملتاه فهناك، في مدينة النور، أُتيحتْ لضيا فرصةُ الانطلاق، ونهلِ المعرفة واللذّة من شتّى منابعهما. ويبدو أنّه انغمس في كلا النشاطيْن بشغف، مع أنّه كان مُقِلاً في الإفصاح عن الثاني. ما خلا تذكُّرَه لحبيبةٍ اسمُها جاكلين، قرَّر إنهاءَ علاقته بها قبل عودته إلى دمشق، لأنّه ـ كما ادّعى ـ لم يشأ أن يُجْبِرَها على حياة دمشق التي لن تستسيغها، كما قَدَّر وخبر، وهو في ذلك محقٌّ غالبًا وأما عن ذكرياته عن دراسته فهو، كما روى لي، قد تابع، بالإضافة إلى تخصُّصه في طبّ العيون الذي داوم عليه على مضض كما يبدو، محاضراتٍ معمَّقةً في التاريخ والفلسفة في السوربون وفي الكوليج دو فرانس، وبخاصةٍ محاضرات هنري برجسون الفلسفية الوجودية، التي بقي منها طعمٌ محبَّبٌ بعد سنين طويلة عندما راح ضيا يتذكّر حياتَه على فراش الموت. وقد جال ضيا في أرجاء أوروبا ما قبل الحرب على ما سمحتْ له به الفرصُ وميزانيتُه المحدودة، التي عزّزها بأنْ لَعِبَ لعبةً مع صديقٍ عزيزٍ له، بقي قريبًا منه حتى مماته، جَعلتْ أخاه الأكبر ـ وهو طبيبٌ مرموقٌ مَثّل في ذهن ضيا سلطةَ الأبِ البديلِ أكثرَ ممّا مَثّل حنانَه ـ يشتري حصّةً له من بعض إرثِ أمه، فتمكّن ضيا من تسديد مصاريف حياته التي بذخ فيها على ملبسه ولهوه وكتبه وسياحاته وغرامياته.

❖ ❖ ❖

عاد ضيا إلى دمشق قبل اندلاع الحرب الكونية مكتملَ الرجولة أنيقَها، عميقَ الثقافة، ومملوءًا بالهاجس الوجودي. ولم تكن دمشقُ بدايةَ الأربعينات، ولا طقوسُ أسرته وطبقته، ممّا يشجِّع أيّاً من نشاطاته الفكرية أو الغرامية التي كانت على ما يبدو ناجحةً جدّاً تحت أنف وعيون المحيطين به، ومن دون أن يبدو لها كبيرُ أثرٍ على السطح الذي حافظ فيه ضيا على مظهر الرجل المحافظ الأصيل، ومن دون أن تكون لأيٍّ منها استمراريةٌ أو نتيجةٌ كما كانت عائلتُه ترجو وتأمل. فهو قد عزف عن الزواج بأيٍّ من النساء الخَدِرات الناعمات اللواتي ارتأت أُختاه موافقتَهنّ له، وصاحَبَ نساءً أخرياتٍ دخل معهنّ في علاقات معقّدةٍ ومتشابكةٍ أخذتْه وراءهنّ إلى مدن أخرى، كبيروت وحلب وصوفر، بعيدًا عن أعين الرقباء وهو قد عزف أيضًا عن العمل طبيبًا ذا عيادة لأنّه، كما أخبرني، لم يعرفْ قطّ كيف يتقاضى أجرَه من مرضاه، بل من أيٍّ كان، لا لأنّه عَفَّ عن المال نفسِه، بل لأنّه كَرِهَ ملمسَه المباشر حين ينتقل من اليدِ التي تعطي إلى اليدِ التي تأخذ. ولم تُعجب حالُه أخاه الأكبرَ ورؤوسَ العائلة، الذين لم يَفْهموا فلسفتَه، ولم تُقْنعهم حججُه، وطبعًا لم تلْجمهم شخصيتُه القويةُ عن ممارسة الضغوط عليه وسرعان ما اصطدم بعقبات العادات والتقاليد، التي لن يستطيع الإفلاتَ منها حتى نهاية حياته عندما قرّر أن يتحدّاها تحدّيًا خجولاً وإنْ باترًا، ولكنْ من دون أثر سيِّئ في محبِّيه وعائلته، كما رغب في أن تكون كلُّ قراراته طوال حياته. فمع الأسف، لم يكن ضيا، على ألمعيته وإنسانيته، مثابرًا أو لجوجًا بما يتطلّبه الحالُ والمقام. فهو، في غالبية تقاطعات حياته المهمة، تقاعَسَ عن اتخاذ القرار الحاسم، عندما تطلّب الأمرُ ذلك، كراهيةً للحسم، وأحيانًا دَفْعَ الثمن، وإنْ كان ذلك في نظر نفسه منسجمًا مع طبعه

ارتأى ضيا الانعتاقَ من جوّ دمشق الذي تطلّب منه الكثيرَ من المداراة بعد سنتين من عودته. فالتحق بالعراق، حيث انضم إلى كادر الحكومة، وتعيّن طبيبًا بعقدٍ لسنتين. ولكنّ إقامته لم تَطُلْ، إذ آثر الهربَ بعد أنْ فاجأتْه ثورةُ رشيد عالي الكيلاني عامَ ١٩٤١، وما رافقها من رياح تغييرٍ عنيف لم يَرُقْ له ولنظرته السياسية البراغماتية التي قبلتْ نموذجَ العصرنة الغربية وعافت عبادةَ الفرد التي قدّمها نموذجُ المحور. فعاد إلى سورية لكي يستخدم بعضَ صلات أخيه ويتعيّن طبيبًا في وزارة الصحّة في دمشق. وتقلّبتْ به المناصبُ والأهواءُ السياسية التي يبدو أنّه انتفع بها لأنّه صَعِدَ في المناصب حتى أصبح في مرتبة المستشار. وكانت لضيا آنذاك أحلامُه السياسيةُ أيضًا، إذ كان يرى نفسه كفؤًا لخدمة بلده في أعلى المناصب، التي كان قولاً وفعلاً يتنسّمها، قبل أن تَسْقط سوريةُ في دوّامة الانقلابات والحكم العسكري التي قَضَتْ على أحلامه وأحلام العديد من معاصريه بالمشاركة في تسيير أمور في الوطن على أسس ديموقراطيةٍ وقانونية. وكان ضيا أيضًا على اتصال بالسفارات الغربية، ربما لميْله المتجذّر إلى الغرب وعاداته وانفتاحه، على الرغم من أنّه في آخر حياته بات شديدَ النقمة على ذلك الغرب، متنبِّئًا له بالخسران المادي والمعنوي لرفضه عضويةَ الشرق في ناديه. وقد مكّنه ذلك الاتصالُ، ولاسيّما بالسفارة الأميركية، من أن يحصل على وعد بتأمين منح دراسيةٍ لمجموعة من الأطبّاء السوريين كان هو منهم وقد سافر وصحبَه بالباخرة العسكرية إلى بلاد العم سام في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكانت تلك بدايةَ مرحلةٍ جديدةٍ في حياته ستَرْبط مصيرَه بالولايات المتحدة سلبًا وإيجابًا، وشدّاً وجذبًا، حتى مماته.

❖ ❖ ❖

لا غرابة ألاّ تمحوَ الولاياتُ المتحدة، عندما رآها، موقعَ باريس في وجدانه ومخيّلته ولكنّها خَلَبَتْه وفَتَنَتْه، حتى إنّه حاول العودةَ إليها، ونجح مرارًا، على الرغم من إمكاناته المادية الضئيلة، التي زادها ضآلةً زهدُه بالمال وعجزُه عن اقتناصه بما تَسْمح له به ظروفُه ومقامُه وعلمُه. وقد عاد ضيا ثلاثَ مرات إلى الولايات المتحدة لكي يتابع شهاداتٍ علميةً مختلفة في طبّ العيون والعلوم السياسية والصحة العامة من جامعاتٍ ثلاثٍ مختلفة ولكنّ المرة الأولى كانت هي الأكثرَ وقعًا في حياته: فقد قابل خلالها امرأةً أميركيةً جميلةً وقويةَ الشخصية، ورضخ ـ بعد مقاومة عشرين سنة ـ لمغريات الزواج، وإنْ نَدِمَ عليه بعيْد حصوله تقريبًا وكما كان متوقَّعًا وواضحًا لضيا نفسه، فإنّه لم يقدِّرْ لهذا الزواج الاستمرار، غير أنّه أنتج ثلاثةَ أولاد، قبل أن تَأْخذ إليانور الفنّانةُ أولادَها وتعودَ إلى أميركا من دون سابق إنذار، وذلك خلال حضوره مؤتمرًا لمنظمة الصحة العالمية في الهند. وكانت هذه نقطةَ تحوُّلٍ مهمةً في حياته إذ إنّه، بالإضافة إلى فقدانه لعائلته

ضيا في غرفة الجلوس في منزله في لوس آنجلس (١٩٧٥)، (من مجموعة د ضُحى الشطّي)

الصغيرة وعودتِه إلى حالة العزوبية التي تلائم طبعَه، سرعان ما أدرك أنّ مدخولَه من وزارة الصحة في سورية لن يفي بمتطلّبات الأولاد الثلاثة في كاليفورنيا الذين عاشوا مع أمهم الفنّانة البوهيمية فتركتْهم شُهورًا أحيانًا يكافحون في سبيل العيش وحدهم. وجَهِدَ ضيا في القيام بمصروفهم بأنْ أَقْنع صديقَه الدكتور حسين، مندوبَ منظمة الصحة العالمية في منطقة الشرق الأوسط ، بمساعدته في الحصول على وظيفة مع المنظمة لكي يؤمّن لأولاده دخلاً كافيًا وبالعملة الصعبة. وهذا ما تمّ

❖ ❖ ❖

قضى ضيا السنوات الثماني التالية يعمل خبيرَ الصحة العامة ومندوبَ منظمة الصحة العالمية في طرابلس الغرب أولاً، ومقديشو ثانيًا. وكان يرسل جزءًا من معاشه شهريّاً إلى الأولاد الثلاثة اليافعين في لوس أنجلس ويبدو أنّ هذا هو السببَ الوحيدَ الذي مكّنه من تحمّل تلك السنوات الطويلة في مدينتيْن تفتقران إلى أبسط متطلّبات الحياة التي أحبّها أو حَلِمَ بها. بل يبدو أنه قضى تلك السنوات في عزلةٍ تامةٍ عن حياة هاتيْن المدينتيْن ومجتمعيْهما: فهو لم يستأجرْ شقةً فيهما قط، بل أقام في فندق كسائح دائم، يلاحِظ ما حوله ولا يشارك، ويَقْبع في غرفته ترفُّعًا وربما توحُّدًا، وإنْ كان ضنينًا بالحديث عن تلك السنين بعد انقضائها. الاستثناء الوحيد هو ذكرياتُه عن حركة الفاتح من سبتمبر في ليبيا بقيادة العقيد معمّر القذافي، والتي كانت على وجه العموم ذكرياتٍ محبِّذةً ولاسيّما بفضل تمكُّن

القذافي وصَحْبِه من إجبار الأميركيين على إخلاء قاعدة هويليس، رمزِ الهيمنة الأميركية في ليبيا، وهي الخطوةُ التي أمل ضيا أن تكون بدايةَ تراجع النفوذ الأميركي في العالم العربي. ولكنّه عاش ليرى اشتدادَ ذلك النفوذ وتوسُّعَه في كافة البلدان العربية، وإنْ حماه موتُه من أن يعايشَ توحُّشَ ذلك النفوذ بعد احتلال العراق وخصيَه الرمزيَّ لكلّ الأنظمة العربية ـ صديقةً كانت أو عدوّةً متوهّمة ـ بعد هجمات الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١.

ويبدو أنّ الأوقات الوحيدة التي استمتع بها ضيا خلال تلك السنين كانت السنوات التي قضاها مع ضحى، ابنتِه الكبرى، والمرأةِ الوحيدة في حياته التي أحبّها وأحبّته وقد تجذّر هذا الحبُّ بعد الحادث الأليم الذي تعرّضتْ له ضحى في مراهقتها، إذ سقطتْ من على صهوة حصان هائج داس على وجهها وشَوَّهه، الأمرُ الذي تطلّب عملياتِ تجميلٍ عديدةً وطويلةً ومرهِقةً ومؤلمة. فقَطَعَ ضيا خلال هذه المدة كلَّ ارتباطاته وجاء ليجلس على طرف سرير ضحى، وليصبحَ لها رفيقًا حميمًا دائمًا. وهكذا عندما كانت ضحى في الفترة التي قضاها ضيا في أفريقيا تتابع دراساتِها الجامعية والعليا في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، صار الاثنان رفيقيْ سفرٍ دائميْن. فكلما تطلّب عملُ أيٍّ منهما سفرًا لحضور مؤتمراتٍ وندواتٍ ودوراتٍ مختلفة في بلاد متعددة، ترافقا وتلازما. ويبدو أنّهما أحبّا تلك الأوقاتَ التي قضياها معًا، ولاسيّما تلك التي صرفاها في مدينةِ شبابِ ضيا، باريس، التي رأتْها ضحى أولَ ما رأتها في منتصف السبعينات من خلالِ عينيْ شابٍ مغناجٍ ومثقفٍ من سنوات الأربعينات، شابَ ليصبح أباها ورفيقَ سفرِها.

❖ ❖ ❖

كانت تلك السنوات هي عينها التي عَرفتُ فيها ضيا معرفةً متقطّعةً من خلال زياراته إلى دمشق. وقد بدا لنا فيها كالحاوي العجيب الذي يأتي بأحلى القصص عن عوالم نَسْمع بها، فيأتي هو ليوثّقَ بعضَ ما نسمع، وليؤنسنَه، ولينفيَ بعضَه الآخر، وليسفّه ضحالةَ فكر المقتنعين به. وقد عاد ضيا مرةً من هولندة في بداية السبعينات من القرن الماضي معجَبًا بما رآه من حياة الهيبيين الذين كانوا في ذلك الوقت يَبْنون أسسَ حياتهم المنفتحة من دون قواعدَ ومواضعاتٍ اجتماعية صارمة، فلاقى ذلك على الأغلب هوًى وقبولاً في نفس هذا اللامنتمي الثائر وقد قدّم وقتَها محاضرةً في الندوة النسائية، التي كانت كلُّ نساء أسرته عضواتٍ فيها، عن الهيبيين وعن الحب المنفتح ـ وهو موضوعٌ غريبٌ بالنسبة إلى جمهور منغلق عن التطورات الحاصلة وقتَها في العالم. ولكنّ ضيا نجح، على الأقل في عينَيِ المراهق الذي كنتُه وقتذاك، في تقريب مفهوم الحب، كما رآه الشبابُ الثائرُ، من أذهان سيّدات دمشق اللواتي لا بدّ وأن دغدغتْ بعضُ هذه الصور مخيّلاتِهنّ لحظاتٍ قبل أن تَزْممنَ شفاهَهنَّ ثانيةً، وتُغْلق أذهانَهنَّ عن الدعوة إلى عالم مختلف، وتَعُدْن بفكرهنّ إلى مشاكل البيت والزوج والأسرة. على كل حال، قَدّمتْ محاضرةُ ضيا فسحةَ حلم، إنْ لم تؤثّر في جمهوره من سيّدات دمشق، فقد أثّرت فيَّ، أنا المراهق ابن الخمسة عشر عامًا، أيّما تأثير. بل لعلّها كانت بدايةَ انفتاحي على مفهوم الحياة الحرة، الذي نجحتُ في الاحتفاظ به لسنواتٍ عدّةٍ، قبل أن أستسلمَ لمتطلّبات الحياة البرجوازية. ولكنّ لذلك قصةً أخرى.

ومع أنّ زيارات ضيا إلى دمشق كانت قصيرةً ومتباعدة، فقد أثّرت في عائلتنا أعظمَ الأثر. فأفرادُها، وبشكلٍ خاصّ أبي وأمي، نظروا إلى ضيا نظرتَهم إلى فيلسوفٍ عميقِ الفكر، وإنْ كان غريبَه. وهم من ثم احترموا آراءه، حتى ما خالَفَ معتقداتِهم وأفكارَهم المسبّقة بعضَ الشيء. فعلى ما أذكر مثلاً في نهاية الستينات، في زيارة سابقة له ونحن في سيارتنا عائدون من بلودان في ليلة صيفية مقمرة، أنّني سمعتُه يطلب من أبي أن يدير إبرةَ المذياع إلى إذاعة «صوت أميركا» لكي نَسْمع أغنيةً للبيتلز. وانطلق ضيا يصف الموسيقى الجديدةَ التي كنتُ قد بدأتُ سماعَها وتذوُّقَها والتأثُّرَ بها، فدحضَ اعتراضات أبي الذي كان يرى فيها ميوعةً وتخنُّثًا وانفلاتًا لا يريده لابنه وأعتقد أنّ أبي سلّم في نهاية الأمر بحجج ضيا في أنّ روح هذه الموسيقى هي روحُ الشباب والتجديد والانعتاق من التقليد، إذ إنّه كفّ ـ وإنْ على مضض ـ عن التدخُّل في ما كنّا نسمعه أنا وأختي.

ومرةً ثانية، وربما خلال الزيارة نفسها، أو بعيْدها إذ كنتُ ماأزال في الصف الثامن الإعدادي، أيْ في العام ١٩٧٠، كنتُ مغرَمًا بالميكروسكوب الذي جلبه لي والدي، أقضي الوقتَ الطويلَ في تحضير الشرائح وفحصِها تحت عدساته ورسمِها أحيانًا أو متابعةِ المعلومات عنها في بعض كتب البيولوجيا المبسّطة. وأرادني والدي، وكان ضيا يزورنا يومًا، أن أقدّم له ما أفعل. أُعجب ضيا باندفاعي واهتمامي، وتنبّأ لي بأن أتابع دراستي العليا في الولايات المتحدة، بلدِ الفتوحات العلمية حيث كان كلُّ الأطبّاء الشباب من الأُسرة يتابعون تخصُّصَهم في ذلك الوقت. وصدق في تنبُّئه، الذي ربما ساهمتْ عباراتُه نفسُها في تحقيقه، وإن اخترتُ منحًى مختلفًا عن البيولوجيا والطب. وكان هذا الاختيارُ الأخير هو أيضًا متأثّرًا إلى حدٍّ كبير بآراء ضيا التي طَوَّرها بعد نقاشات طويلة بيننا في بدايات الثمانينات، إما في حديقة المنحوتات في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، أو على شاطئ سانتا مونيكا وقتَ غروب الشمس، أو في غرفة جلوسه المتواضعة مع سيجارتيْ مالبورو لايْت وكوبيْ قهوةٍ حارفة.

❖ ❖ ❖

فالحال أنّ ضيا، الذي تقاعد من وزارة الصحة في سورية ومن منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٣، قرّر الذهابَ إلى حيث تقيم

التمشّي على شاطئ سانتا مونيكا

ضحى، في لوس أنجلس حيث كانت تحضّر شهادةَ الدكتوراة في الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس آنذاك. وعاشا في العمارة نفسها، كلٌّ في شقة صغيرة وتمكّنتْ ضحى اللّبِقة من الحصول على منصبِ «محاضرٍ زائرٍ» لضيا في الجامعة نفسها في قسم الصحّة العامة، وهو ما مكّنه من التمتّع بكافة مميّزات الانتماء إلى الجامعة وبعد سنة أو أكثر قليلاً غادرتْ ضحى لوس أنجلس لمتابعة رحلتها العلمية، وبقي ضيا هناك جَذْرًا ومرساةً لعائلته الصغيرة، التي تفرّق أفرادُها في ولاية كاليفورنيا نفسها. وصار هو الموئِلَ والمرفأَ الذي يجتمع عنده الأولادُ الثلاثةُ في الأعياد الكبرى بعد تشرُّدهم وتشتُّتهم.

وأصبح لضيا روتينٌ يوميٌّ في لوس أنجلس كان قد تثبَّت تمامًا عندما عايشتُه. فهو في الصباح، في شقته الصغيرة والمتواضعة، يقرأ الجرائدَ والمجلاتِ العديدةَ التي كان مشتركًا فيها، ويسمع الأخبار. ثم يتناول إفطارَه الزاهد: قطعةً من تفّاحة أو موزة يعلّق ما تبقّى منها بخيطٍ يتدلّى فوق مَجْلاه لمراتٍ أخرى، وقطعةَ خبزٍ محمَّص، وفنجانَ قهوة (عادةً من ماركة فولجرز) ثم ينطلق بسيارته الشيروكي، التي صُمِّمتْ لسائقِين أكثرَ منه جسارةً، مسافةَ الميليْن إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس لكي يركنَها في مكانها المعتاد وينطلق إلى المكتبة الكبرى، وتحديدًا إلى الطابق السادس منها حيث المجموعةُ العربيةُ، فيتناول جزءًا من **كتاب الأغاني** للأصفهاني أو غيره من كتب التراث الكبيرة، ويقرأ فيه بتروٍّ واهتمام، ويدوِّن الكثيرَ من الملاحظات في دفتره، وهو ما أدّى على مرّ السنين إلى أن يتجمّع لديه عددٌ لا بأسَ به من هذه الدفاتر التي تحتوي كنوزًا من الملاحظات عن التاريخ الإسلامي الأوّلي. وقد حاول في نهاية حياته، وبعد تردُّدٍ كبيرٍ ودفعٍ شديدٍ من جانبي، جمعَ تلك الملاحظات في مقالات قصيرة وسأحاول يومًا استخلاصَ ما هو جاهزٌ للنشر منها، إنْ قدرتُ

بعد ساعتين من القراءة في المكتبة، يَنْزل ضيا إلى «كانتِين» الطلبة المسمّى بـ «الحرم الشمالي،» حيث يشتري ساندويشةً وعلبةَ عصير، وينتحي ركنًا في الحديقة فيتناول غذاءه على مهل وكثيرًا ما قابلتُه هناك لهنيْهات أزدردُ فيها غذائي بسرعة لأعود إلى كلّيتي أما هو فيسير عائدًا إلى سيارته على مهل باتجاه المنزل، حيث يرتاح، ماعدا يومين في الأسبوع يذهب فيهما إلى مسبح الجامعة ليسبحَ قليلاً وقبيْل غروب الشمس، يغادر منزلَه ثانيةً إلى شاطئ المحيط في

سانتا مونيكا، حيث يقضي ساعةَ الغروب في التجوُّل بهدوء، وفي التأمل والتفكير والتفرج على الناس. وهناك كنا نلتقي أحيانًا كثيرةً، إذ آتيه قاصدًا صحبتَه، فنتحادث ونتجادل ونَحْلم. وهذا ما خَلَقَ بيننا لُحمةً وأُلفة، استمرّتا من دون أيّ إشارةٍ إليهما في حديثٍ أو رسالةٍ حتى أسبوع وفاته، عندما تكلّم ضيا عن أسباب عودته إلى دمشق من لوس أنجلس بعد اثنتيْ عشرة سنةً من الإقامة فيها والتأقلم معها، وهو الذي لم يرغبْ يومًا في الإقامة في دمشق. وجاء تفسيرُه محسوبًا ومنطقيّاً كالعادة، ثم أضاف: «وكنتُ قد بدأتُ أشعرُ بالوحدة بعد أن تركتَ لوس أنجلس لتنتقلَ إلى بوسطن.» وسَكَتَ من دون أيّ تعقيبٍ، ولكنّ الرسالة كانت قد بلغتْ، والمعنى قد وصل.

كان لهذه اللقاءات على شاطئ سانتا مونيكا أثرٌ كبيرٌ في صياغة قراري بتغيير اتجاهي العلمي، ومتابعةِ تحصيلي العالي لدرجة الدكتوراة، والانغماس في البحث والتعليم بدلاً من التصميم والبناء. ولستُ بنادمٍ على هذا القرار إطلاقًا، بل إني أُرسل إلى روح ضيا سلاماتٍ كلّما تفكّرتُ في ما آلت إليه حياتي ومدى تأثيره هو في مآلها، من دون كبيرِ ضغطٍ أو رغبةٍ في التأثير، من قبله. وكان لهذه المشاوير على شاطئ سانتا مونيكا أيضًا تأثيرٌ كبيرٌ في تطوُّر نظرتي إلى الدنيا ومواقفي من القضايا الإنسانية الكبرى التي تَشْغلنا، والتي قضينا ساعاتٍ طوالاً نناقشها ونصوغ آراءنا فيها. كان ضيا محاورًا رائعًا، ومستمعًا متعاطفًا، ومحفِّزًا متأهِّبًا. وهو كان من أكثر المحاورين تأثيرًا في آراء محاوريه، وأحيانًا من دون إرادته، بل ربما رغمًا عنها. فهو كان يَكْره، أكثرَ ما يَكْره، المسؤوليةَ عن خيارات غيره، ويبتعد عنها حتى عندما يأتيه المقرَّبون طارقين بابَه يسألونه نُصْحَه. وكان يجيد لعبةَ المحاورة إجادةً قلّ نظيرُها. فهو يَدْفع محدِّثَه إلى طرح آرائه كلِّها في البداية، ثم ينعطف ويبدأ بطرح آراءٍ لا يَنْسبها إلى نفسه وإنما يحيلها على مصادرها التي قرأها أو سمعها على التلفزيون أو الراديو، ولا يتحمّس كثيرًا لها... عدا بعض الموضوعات التي تؤرِّقه أو تستثيره، وعلى رأسها: الحريةُ الفردية، والتلاعبُ بالتاريخ، وتقديسُ البعيد منه، ونهايةُ الإمبراطورية الأميركية التي كان يتوقّعها بعد جيليْن أو ثلاثة.

بعد أن يتمشّى ساعةً أو أكثر قليلاً، يعود إلى منزله ليتناول وجبةَ العشاء التي لا تتعدّى في كثير من الأحيان باقي التفّاحة أو الموزة التي أكلها في الصباح، وليقرأ قليلاً، أو ليتتبّع الأخبارَ على شاشة التلفزيون ـ وكان ضيا نهمًا لمعرفةِ كلِّ ما يجري في العالم ـ ثم النوم. وهكذا كانت الأيامُ تمضي، وضيا كمن يتزوّد لسفرٍ لم يزمعْ قطّ تحقيقَه، وإنْ هيّأ له كلَّ مستلزماته. يتابع، يقرأ، يتفرّج، يفكّر، يحلِّل، ويأخذ الكثيرَ من الملاحظات، ولكنْ من دون أيِّ هدفٍ من كتابةِ كتابٍ أو نشرِ مقالاتٍ أو إلقاءِ محاضرات. حسْبُها أنّها معرفةٌ تتراكم، وفلسفةٌ تتعمّق، وآراءٌ تتطور. ربما كان ضيا في الواقع من نوع المثقفين للثقافة ذاتها، ذلك النوع من الناس الحسّاسين الذي انقضى عهدُهم مع انقضاء الفترة الرومانتيكية في نهاية القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين. أو ربما كان من الناس الذين لم يتمكّنْ محيطُهم من الاستفادة من إمكانيّاتهم، ولم يتمكّنوا هم من تطويع إمكانيّاتهم لإفادة محيطهم. ولكنّه كان أيضًا، بطريقته الخاصة الهادئة والمترفِّعة واللامتدخِّلة، صاحبَ تأثير كبير في كلّ مَنْ عرفه وعايشه حتى آخر أيّام حياته. بل عرف، وهو على سرير موته، كيف يَنْفذ إلى قلوب ممرِّضاته اللواتي أُعجبن به جميعًا، ولاسيّما بسكينة نفسه في انتظار النهاية.

كان ضيا، في كهولته وشيخوخته، إنسانًا قنوعًا، بل ومتقشِّفًا إلى درجة الصوفيين والرهبان المنقطعين في صوامع أعالي الجبال. غير أنّه لم يكن يشارك هؤلاء انقطاعَهم عن الدنيا، بل على العكس من ذلك: فهو المراقِبُ المدقِّقُ والمتأنِّي الذي يحاول فهمَ كلّ شاردةٍ وواردةٍ من شؤون العالم وقد أتيحت لي الفرصةُ مرارًا في السنوات الثلاث التي قضيتُها بصحبته في لوس أنجلس لكي ألاحظ كيفية تفاعله مع إحداث العالم حوله ومتابعته شواردَها من خلال قراءته عددًا كبيرًا من الصحف والدوريات يوميّاً. وكنّا نقضي الساعاتِ الطوالَ نتحدّث في الدين والفلسفة والسياسة.. وفي المستقبل الذي ما برح واحدًا من هموم ضيا ليس فقط بالنسبة إلى نفسه وأسرته وبلده سورية، بل بالنسبة إلى العالم والإنسانية كافةً أيضًا . وبخاصةٍ الناشئة

❖ ❖ ❖

عاد ضيا إلى دمشق، كالفيل الهرم الذي أحسّ بدنوّ أجله فرجع إلى المقبرة الجماعية التي يَعْرفها بالغريزة. هذا هو على الأقلّ ما قاله مرارًا، وإنْ كانت تصرفاتُه تشي بعكسِ ذلك. فهو في تلك الفترة عينها تمتَّعَ بإحساس الاستمرارية، عبر قضائه وقتًا طويلاً مع ضحى وعائلتها، واقترابه من حفيديْه إدريان وميراندا. وفي تلك الفترة أيضًا تمكّن من إعادة الصلة بأفراد عائلته في دمشق، وحضر وفاةَ شقيقتيْه عزيزة وإحسان، وعاد إلى لعب دوره القديم: فيلسوفِ العائلة المتفرّد، صاحبِ الآراء الغريبة والحجج القوية، الذي يحتكم إليه أفرادُها في جلسات نقاشهم الصاخبة ولاسيّما عندما يتطرّقون إلى موضوعاتٍ عقائديةٍ أو فلسفيةٍ أو تاريخية. وسرعان ما طَوّر ضيا لنفسه روتينًا جديدًا في دمشق كان انعكاسًا لروتينه في لوس أنجلس ولكنْ على مدى أصغر فهو قد بدّل مكتبةَ الجامعة في لوس أنجلس بمكتبة الأسد في دمشق، ومسبحَ الجامعة في لوس أنجلس بمسبح فندق الشيراتون في دمشق، وصحبتي في لوس أنجلس بصحبةِ أبي في دمشق. وصار الاثنان رفيقيْ سباحةٍ وتشمُّس،

يتلازمان على الجلوس تحت الشماسي والمناشف اتقاءً لشمس الصيف اللاهبة في دمشق، ويتحدّثان في مواضيع تهمُّهما من سياسةٍ وأدبٍ ودين، ويتفاهمان وإنْ كانت آراؤهما على الغالب متعارضة ثم يسكتان، وينغمس كلٌّ منهما في ما يقرأه من جريدة أو رواية، مختلسًا النظرَ إلى الصبايا الفاتنات اللواتي يتمشّين حولهما.

ولكنّ ضيا لم يستقرّ نفسيّاً في دمشق أبدًا فهو في تلك الفترة أيضًا ابتدأ بالتخطيط لشراء منزلٍ في لوس أنجلس والعودةِ إليها مع ضحى وعائلتها لكنّ ذلك لم يحصلْ، وأظنُّه كان مدركًا لكون ذلك المخطَّط حلمًا لن يتحقق بدليل تباطُئه في تنفيذه، ربما لأنّه لم يَرْغب في افتتاحيةٍ حياتيةٍ جديدةٍ مع اقتراب النهاية التي كان يحسّ بها إحساسًا مبهمًا في البداية سرعان ما تحوّل يقينًا عندما شُخِّص مرضُ السرطان لديه في نهاية التسعينيات.

عاش ضيا أيامَه التالية في دمشق تحت هاجس الموت. وقد كان يرغب في استبطائه لكي يرى الألفيةَ الجديدة، التي كانت في رأيه ستبدأ عام ٢٠٠١ لا ٢٠٠٠، ولكي يصفّي ممتلكاتِه المتواضعة، ويَضْمنَ تحقيقَ وصيّته التي لا تحوي سوى شرطيْن يؤكّدان رغبتَه في الانمحاء من دون كثير ضوضاء... مع أنّه قام بمحاولةٍ متأخِّرة ومتردِّدة لمدافعة الموت عندما قرّر فجأةً مغادرةَ دمشق والذهاب إلى ضحى في أكسفورد، كما يعود المرءُ إلى حبّه الأول وإنْ خيالاً في لحظاتِ نهايته. وحاول، وحاولتْ ضحى معه لفترة، التخطيطَ لمستقبلٍ أطول ممّا كان في حوزته: فهما كانا يخطّطان لرحلة إلى الأندلس، حلم الحضارة العربية الذهبي الضائع، التي لم تُتَحْ له قطّ زيارتُها رغم طول ترحاله في العالم. وابتدأا جديّاً بحجز الفنادق والطائرة. ولكنْ عندما جاء الرأيُ الطبي النهائي بعد أشهر من تردّد ضيا في السعي إليه، كان رأيًا باترًا، رغم أنّ ضحى حَمَتْه من سماعه وإدراكِ حدّته. ولا أدري إلى أيّ مدًى كان ضيا مدركًا لقرب النهاية عندما كانت قريبة فعلاً، ولكنّي أرجّح أنّه كان واعيًا بذلك ويحاول تهيئةَ نفسه له. ولذلك أظنّ أنّه قال لي «تعال» عندما هاتفتُه من بوسطن لأسأله إنْ كان يظنّ أنّ مجيئي إليه أمرٌ ملحّ وقد جئتُه، لأجدَه يعيش أيامَه الأخيرة مع مسكّنات الألم التي منحتْه شعورًا اصطناعيّاً بالراحة، محاطًا ببعضِ مَنْ أحبّ ومَنْ أحبَّه. وكان ذهنُه يَعْمل حتى لحظاته الأخيرة، وذكرياتُه تتدفّق، لتؤكّد توقُّدَه واستمرارَه وتعلُّقَه بالدنيا التي عرف والتي يريد استعادتَها في آخر لحظات وعيه. وطفق يتحدّث عن حياته حديثَ العارفِ بجمالها، والمعترفِ بجمائلها عليه، والراغبِ في المزيد من ذلك كلِّه ولقد خدعتني مظاهرُ التوقّد، كما لا أظنّها خَدَعتْ ضحى في الأيام الأخيرة، ولكنّها كانت محضَ مظاهر، إذ لم يُكْمل الأسبوعَ في مشفاه الأخير.

واليومَ، وقد مات ضيا، فقد بقيتْ منه نفحةُ ضيا.

الكويت والقاهرة وكامبردج

(شباط ٢٠٠٠ ـ آب ٢٠٠٥)

لقد وضع يديه تحت إبطيه، ولو أنّه قربهما الآن من أنفه لشمّ رائحته، وربما عرف ألاّ شيء يستحقّ عناءَ ما فعل. كان ذلك آخر ما فكّر فيه، بعدها لم يدرِ بما أو بمن فكّر. طَردتْ صورةُ الجسد الملطّخ بالدم والمنكفئ على الإسفلت كلَّ التفاصيل الأخرى، وودّ لو فرّ منها، لكنّه كان يجرّ شيئًا ثقيلاً خلفه ويلهث: أمه، وأخته، وأباه، والحياة التي عاشها من قبل والتي لن يعيشها من بعد، والأشياء التي ظنّ أنّها تنتظره، فاكتشف أنّه هو من سيظلّ ينتظرها، وربما لن تجيء، والموت، الموت الذي فرّ من جواره. الموت الذي انتظره في شارع خلفي من شوارع المدينة المنوّرة كي يقهقه بلا حشمة.

ليلى الجُهني روائية سعودية، وهذه روايتها الثانية بعد الفردوس اليباب (دائرة الثقافة والإعلام ـ الشارقة).